المقاربة التداولية للتراث عند طه عبد الرحمان
د. بلمصابيح خالد، جامعة تيسمسيلت

مقدمة:

لقد برزت على الساحة الفكرية و النقدية و الأدبية في واقعنا المعاصر مرجعيات عديدة تضاربت بسببها المنطلقات و تعددت معها المناهج و المفاهيم [1]، فأصبح الفكر العربي:

– يعيش على إيقاع فوضى منهجية ومفاهيمية.

– ترتجم في مجملها، أزمتنا الحضارية التي زادت من تخلفنا وانحطاطنا وتبعيتنا، بسبب ما تسرب إلى فكرنا العربي من مرجعيات وفلسفيات وإيديولوجيات، أحدثت في وعينا فصاما حضاريا خطيرا، أصبح معه الغرب النموذج والعدو في الان ذاته[2]، لقد فسح سياق المراوحة بين الانتساب لمرجعية الذات وبين الأخذ بمرجعية الأخر، المجال لبروز إشكاليات جزئية، كانت في مجملها كفيلة بتعميق الاختلاف والخلاف بين المنتسبين للفكر النهضوي العربي، لعل من أبرزها:

ثنائية الأصالة و المعاصرة، أو التراث و الحداثة، وما تبع ذلك من مشكلات لم تجد لها حلا في واقعنا الحل النهائي، و ذلك في علاقتها بمنهج قراءة تراثنا من جهة، و منهج قراءة تراث غيرن[3] ، بحيث الفرد المصاب بهذا الغرب حتى التوتر على إيقاع الحب و الكراهية في الآن ذاته، الشيء الذي افرز لنا، في نهاية المطاف، فكرا متوترا انعكس سلبا

[1] ينظر على سبيل المثال، عبد الله ابراهيم، الثقافة العربية و المرجعيات المستعارة .

[2] لقد اصيب وعينا العربي من جراء هذا الفصام الحضاري بما يمكن تسميته مع (بلويدر) بالتجاذب الوجداني.

على تحديد مواقفه من جهة، و معالجته لمختلف قضايا المجتمع العربي، من جهة أخرى .

وقد ازداد حضور إشكال المنهج القراءة في الفكر العربي بموازاة مع بروز كتابات النقد الذاتي التي أقررتها هزيمة (1967) على وجه الخصوص، والتي عبّر من خلالها المفكرون العرب على اختلاف تياراتهم وإيديولوجيتهم عن أزمة المنهج في عملية التفكير، وكانت كفيلة ببروز تقليد نقد الفكر العربي، سواء على مستوى بنيته أو على مستوى آلياته [1]

غير أن هذا الضرب من النقد اتجه بشكل كبير إلى علاقة الفكر النهضوي بالماضي، ومنه على وجه الخصوص العلاقة بالتراث، وذلك في سياق البحث عن خلفيات الاهتمام المتزايد بالتراث، و قد تنافس في هذا التوجه الفكري الكثيرون، حتى أصبح يمد بعض التيارات الإيديولوجية العربية إحدى أساسيات برنامجها (السياسي و الاجتماعي)، كما هو الحال عند الماركسيين العرب على وجه الخصوص نذكر على سبيل المثال:

- النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية لحسين مروة.
- مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط لطيبتيزيني.
- التراث و الثورة لغالي شكري.
- الماركسية و التراث لعربي الإسلامي لمجموعة من الباحثين.
- تاريخية الفكر العربي الإسلامي لمحمد أركون.

لقد تبين لنا من خلال ما تمت مراجعته من كتابات تتعلق بقراءة التراث، و خاصة تلك المنتمية لمجال المشاريع الفكرية الكبرى، أن فعل قراءة النصوص التراثية يختلف باختلاف الأنظمة المعرفية و الثقافية والتوظيف الإيديولوجي للمفكر، يصبح معه كل نص مختلفا عن نفسه، أي عن معناه بحسب عقول قرائه، أو بتعبير أخر: يصبح النص

[1] على سبيل المثال:
مشروع نقد العقل العربي لمحمد عابد الجابري
تجديد المنهج في تقويم التراث لطه عبد الرحمان
اغتيال العقل لبرهان كليون
تجديد الفكر العربي لزكي نجيب محمود
نظرية العقل لجورج طواتيني

متماثلا في الأعيان، مختلفا في الأذهان: كما يقول على حرب: ذلك انه واحد من حيث انتسابه إلى مؤلفه، و هو أيضا و خاصة واحد بالصورة الصوتية و الكتابية (....) و لكن إذا نظرنا إلى النص من حيث علاقته بقارئه، فلن تجد سوى الاختلاف و التعدد، إذ لا تطابق بين قراءة و أخرى لذات النص كما هو محقق عند من ينظر و يتفحص.[1]

لقد سعينا في هذه الورقة البحثية قدر المستطاع تقديم صورة عامة، باعتماد المنهج الوصفي التحليلي، عن طبيعة خضوع النص التراثي لسلطة الباحث، وذلك من داخل بحثنا عن الصلة الرابطة بين ابرز خلفيات قراءة التراث و بين توظيف المناهج و المفاهيم التي قرئ بها هذا التراث، تبين لنا من خلالها أن الفكر العربي ما زال يواجه لحد الآن جملة من الصعوبات في هذا السياق لعل من أبرزها طبيعة العلاقة الموجودة بين المنهج ووجهة النظر، إذ تفرض هذه الأخيرة نوعا محددا من القراءة، كما تفرض إلى جانب ذلك زوايا ومناطق الاختبار، بل و تتحكم كذلك في نقاط البداية و النهاية، لا يكون الماضي حينها ماضيا لذاته، بقدر ما يصبح ماضيا لغيره و هو هنا الحاضر الذي هو نقطة البداية باتجاه المستقبل.

يقول حسين مروة وهو من أبرز من طبقوا منهج القراءة الماركسي على تراث الفلسفي العبي الإسلامي، وهو يتحدث عن طبيعة العلاقة بين قراءة التراث و حاجات الصراع الفكري الاجتماعي الحاضر: إن ثورية الموقف من قضايا الحاضر، تستلزم الانطلاق من هذا الموقف نفسه لرؤية التراث، أي معرفة ثورية، أي لبناء هذه المعرفة على أساس إيديولوجية القوى الثورية نفسها في الحاضر (.....) إن بناء معرفة التراث على هذا الأساس الإيديولوجي ليس أمرا نعرفه نحن على الواقع فسرا، أو نفترضه بالنظر التجديدي المحصن، و إنما من طبيعة الواقع نفسه.[2]

وقد لا نجانب الصواب إن قلنا في هذا المقام، مع الدكتور الشاهد البوشيخي: "إن مشكلة المنهج هي مشكلة أمتنا الأولى، ولن يتم إقلاعنا العلمي ولا ا العقاري، إلا بعد الاهتداء في المجتمع، للتي هي أقوم: وبمقدار ثقافتنا في المنهج ورشدنا فيه، يكون مستوى الانطلاقية كما وكيفا"[3]، الشيء الذي يبيّن بكل وضوح أن أساس الانطلاق الصحيح،

[1] على حرب، نقد الحقيقة، ص22.

[2] حسين مروة، النزعات المتساوية في الفلسفة العربية الاسلامية، 16.

[3] مصطلحات النقد العربي لدى شعراء الجاهليين والاسلاميين، ص21.

يتجلى في تجديد منهج فهم الذات، صافيا وحاقدا، حتى تستقيم رؤيتنا للمستقبل، فنحاول إصلاح الحال قبل إصلاح العمل، و نحاول إصلاح العمل قبل تجديد الفهم، و نحاول تجديد الفهم قبل تجديد المنهج(...) فالمنهج الراشد ينتج العلم النافع، والعلم النافع ينتج العمل الصالح، والعمل الصالح ينتج الحال الصالح، والحياة النفسية.[1]

القراءة التكاملية للتراث

نموذج المقارنة التداولية :

لقد تعرض التراث للعديد من القراءات التي حاول أصحابها، كل من جهته، الدفاع عن نموذج محدد من الرؤية وأسلوب يعنيه في التحليل والنقد والتقويم، مما عرض نصوصه لنوع من التعسف المنهجي، غلب عليه الجانب الإيديولوجي على الجانب المعرفي، وأضحى هذا التراث مجزأ إلى أطراف وأجزاء معرفية قضت على وحدته ونسقيته التي بدونها لا يمكن للفهم أن يستقيم، ولا للرؤية أن تتضح بالشكل الذي يفسح المجال أمامنا لبناء تصور عام عن هذا التراث الذي لا انفكاك لهذه الأمة عنه، لأنه الأساس الطيب لبناء هويتها المعرفية والحضارية من جهة، ولأن في تغييره أو تركه من جهة أخرى فرصة للانشغال بغيره من تراث الشعوب الأخرى، كما حصل للحداثيين العرب الذين دعوا إلى القطيعة مع التراث العربي الإسلامي والاشتغال بغيره، يقول الدكتور طه عبد الرحمن: "أن تحدد ثقتنا بقدراتنا واوصل مصادر استلهمتنا؛ وليس معنى بقاء التعامل مع التراث هو حفظ كل ما فيه ما على الوجه الذي كان به من غير اعتبار لمقتضى الماضي ولا لمقتضى الحاضر، نظرا لأن هذا الحفظ ولو سعينا إليه ما سعينا، يظل غير ممكن[2].

في سياق التوجيه العام لأصحاب الرؤية بعين الغير، الذين تعاملوا مع نصوص التراث من داخل ما يحمله خطابه من مناهج ومفاهيم ورؤوس وأحكام ومعايير مسبقة، ثم دراسة مضامين النصوص التراثية دون آليات إنتاجها، فيما وسع من دائرة التجزئة التي ألحقت نسقية النص التراثي نفسه.

لقد تعرض التراث من خلال هذه الدراسات النقدية المتوسطة بخطاب الغير، إلى هذا النوع من التجزئة التي فصلت بين مضمون النص والوسيلة التي أنتج بها، إضافة إلى تقسيم التراث إلى أقسام متعددة، بل وتفضيل بعضها على بعض، وتعريض نسقيته

[1] الشاهد بوشيخي، القرآن والدراسات المصلحية، ص10.

[2] طه عبدالرحمان، حوارات من أجل المستقبل، ص13.

إلى نوع محدد من الانتقاء، الشيء الذي ترتب عنه الحذف والاستثناء الذي جرد الإنتاج التراثي من نسقيته وشموليته.

من هنا يظهر بكل وضوح أن من أهم الخطوات الأساسية للقراءة المستقيمة للتراث، خطوة التكاملية التي تمكن الباحث من الجمع بين النظر إلى مضمون والنظر إلى المنهج الذي أنتج به، بل ويمكن القول في هذا المقام: إن الضرورة العلمية تقتضي أن يسبق البحث في منهج التأليف النص قبل البحث في مضمونه.

وقد لا نجانب الصواب إن قلنا إن من أهم أسباب بروز هذه الآفة المنهجية الخاصة بالتعامل مع التراث، التوسل بالآليات المنقولة عن الغير التي تم إقحامها في دراسة النص التراثي إقحاما انعكس على بنيته الداخلية: ومن المعروف كما يرى طه عبد الرحمان "أن هذه الآليات وضعت في أصلها الموضوعات المغايرة لموضوع التراث وعلى مقتضى شروط مخالفة لشروطه، فيكون إنزالها على التراث، ومن غير ممارسة أشد أساليب النقد عليها لاسيما في التصرف فيه بغير أحكامه اللازمة له، فيؤدي هذا التعرف إلى إخراج التراث على صورة لا تحافظ على بنيته في تداخل أجزائه وتساند عناصرها، إن لم تفصل بين هذه الأجزاء والعناصر فعلا وتقابل بينها مقابلة، ضاربة بعضها ببعض"[1]

يتضح أن ثمة حاجة معرفية ومنهجية للدعة إلى القراءة التكاملية للتراث التي بمقتضاها يتم الحد من شيوع الرؤية التجزئية والتفاضلية للنصوص، إذا السؤال الذي يتكون من داخل القراءة التكاملية ليس هو: ماذا نأخذ من التراث وماذا نترك؟، وإنما هو على وجه الخصوص: ما طبيعة العلاقة النسقية الموجودة بين مختلف أجزائه؟.

كما يتبين لنا الوجه المكشوف للفوضى المعرفية التي تحدثها القراءة التفاضلية والتجزئية للتراث، يصبح من خلال هذا التراث سلاحا إيديولوجيا في أيدي الكثيرين، يحارب كل واحد منهم خصومه بالنصوص التي تشيع حاجاته الإيديولوجية، الأمر الذي يجعل النتائج التي يمكن للقراءة التكاملية أن تحققها، التخفيف من المنقولة عن غيرنا من جهة أخرى، بما يفتح المجال واسعا أمام تسديد عملية التأصيل والتأسيس المنهجيين من داخل الذات يدل الإبقاء على طغيان رؤية الغير داخل قراءتنا لماضينا وتقويمنا لحاضرنا وتخطيطنا لمستقبلنا.

[1] طه عبد الرحمان، حوارات من أجل المستقبل، ص27.

يقول الدكتور طه عبد الرحمان ملخصا هذه التطورات في التعامل مع التراث: "إن النظرة التكاملية في التراث، التي أدعوا إليها من أجل معرفته من حيث هو كذلك على اعتبار أنه كل متكامل لا يقبل التفرقة بين أجزائه، وأنه وحدة مستقلة لا يقبل التبعية لغيره"[1]

محددات النظرة التكاملية

أهم ما تقوم عليه هذه النظرة التكاملية ثلاثة محددات رئيسية هي:

- **المحدد التداولي:** ومقتضاه، أن كل مظهر من مظاهر الإنتاجية في التراث عقيدة أو لغة أو معرفة، حاصل لخاصية العمل، مع إنصاف هذا العمل بأوصاف ليست في غيره، إن هو عمل من اجل منفعة الغير، فضلا عن منفعة الذات، وعمل من أجل منفعة الأجل، فضلا عن منفعة العاجل.

- المحدد التداخلي: ومقتضاه أن المنقول عن الغير يخضع لتحولات تصحيحية مختلفة، إن في مضمونه أو في صورته، لكي يصير متلائما مع المقتضيات التداولية للتراث، كما يخضع للتحولات التي أوجبها تقدم المعرفة العلمية الذي حصل في المجال التداولي الإسلامي العربي بالنسبة للمجال المنقول منه، يونانيا كان أو فارسيا أو هنديا[2]

يتضح مما تقدم بعض الملامح الرئيسة للقول بضرورة اعتماد الرؤية التكميلية في قراءة التراث، وهي رؤية ما كان لها أن تترشح داخل خطاب التأصيل المنهجي لولا شيوع آخر.

[1] ينظر: طه عبد الرحمان، حوارات من أجل المستقبل، ص ص 28، 29

[2] طه عبد الرحمان، تحديد المنهج في تقويم السندات، ص82.